النقد الجزائري المعاصر من هاجس التنظير إلى مآزق التطبيق

Contemporary Algerian Criticism: From Obsession with Theorizing to the Predicaments of Application

صالح جديد *

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر

الملخص:

تقوم التجارب النقدية عادة على مرتكزين اثنين :مرتكز نظري يتأسس على المرجعيات الفلسفية والفكرية للنظرية والمنهج النقديين،ومرتكز عملي تطبيقي يعمل على استثمار تلك المرجعيات الفلسفية والفكرية ومحاولة إسقاطها على النص الإبداعي،ولتحقق من مدى حصول هذا تتبعنا التجربة النقدية لكل من واسيني الأعرج وحسن خمري وعبد الحميد بورايو في مؤلفاتهم النقدية – ونظرا لاستحالة الإحاطة بكل العمال وقراءتها قراءة نقدية واعية ومتأنية في مثل هذه المحافل العلمية المتسمة بالدقة والتركيز- ركزنا عملنا على مؤلف نقدي واحد لكل واحد منهما توخينا فيه نضج التجربة أو الاستجابة لإشكالية مداخلتنا .

.

الكلمات المفتاحية: النقد الجزائري، التنظير، التطبيق

Abstract:

Critical experiments are usually based on two foundations: a theoretical foundation based on the philosophical and intellectual references to critical theory and approach, and an applied practical foundation that invests these philosophical and intellectual references and attempts to project them onto the creative text. Al-Hamid Borayo in their critical writings - and due to the impossibility of encompassing all the workers and reading them critically and carefully in such scientific forums characterized by accuracy and focus - we focused our work on one critical author for each of them, in which we envisaged the maturity of the experiment or the response to the problematic of our intervention.

.

Keywords: Algerian criticism, theory, application

****

* جامعة الشاذلي بن جديد الطارف.

مقدمة:

تقوم التجارب النقدية عادة على مرتكزين اثنين :مرتكز نظري يتأسس على المرجعيات الفلسفية والفكرية للنظرية والمنهج النقديين، ومرتكز عملي تطبيقي يعمل على استثمار تلك المرجعيات الفلسفية والفكرية ومحاولة إسقاطها على النص الإبداعي، ولتحقق من مدى حصول هذا تتبعنا التجربة النقدية لكل من واسيني الأعرج وحسن خمري وعبد الحميد بورايو في مؤلفاتهم النقدية — ونظرا لاستحالة الإحاطة بكل العمال وقراءتها قراءة نقدية واعية ومتأنية في مثل هذه المحافل العلمية المتسمة بالدقة والتركيز- ركزنا عملنا على مؤلف نقدي واحد لكل واحد منهما توخينا فيه نضج التجربة أو الاستجابة لإشكالية مداخلتنا .

تجارب النقد الجزائري في ميزان النقد: الممارسة النقدية الجزائرية لا يمكن عزلها عن مدارات النقد العربي والغربي سواء من ناحية المقولات النظرية أو التطبيقية القائمة على المناهج النقدية، ويتضح الأمر أكثر عند الحديث عن النقد الحديث والمعاصر الذي ظل رهين التجربة النقدية الغربية ولم يستطع أن يشكل مدرسة أو منهجا نقديا خاصا به سواء بصفته جزائري أو عربي، قد يقول أحد أننا نبالغ بالتهوين والتقليل من جهد نقادنا، وقد يكونون على حق، لما يتعلق الأمر بكتب ودراسات تتابع المسائل النظرية في عالم النقد أو تتابع التجارب الإبداعية بدراسات ومقاربات نقدية، لكننا نتحدث عن رؤى ودراسات نقدية من صميم الفكر الجزائري أو على الأقل العربي الخالص.

إن مسألة النقد الجزائري في تبعيته للنقد الغربي تنظيرا وتطبيقا لا تنفرد بذاتها كحالة مستقلة عن النقد العربي ككل فكل من يطالع ما كتب من كتب نقدية أو ما قدم من دراسات ومحاضرات يجدها تنطلق من النقد الغربي ثم تجري بعض المقاربات التطبيقية وفق مناهج النقد الغربي أيضا، وهذا ما جعل النص الأدبي العربي عموما والجزائري خصوصا رهينة للفلسفات والأيديولوجيات الغربية وبذلك نجد المعالجات للقضايا الاجتماعية والاقتصادية والفكرية واللغوية غريبة عن محيطها وهذا ما ينتج نوعا من الانفصام والغربة واللانتماء ،وقد يقول قائل إن النصوص الإبداعية الحديثة تصدر من مشكاة الفلسفة والأيديولوجيا الغربية وبالتالي لا مجال للتناقض والتنافر.

لن نتحدث في هذا المقام عن النقاد الجزائريين ولا عن مؤلفاتهم بصورة مفصلة وعميقة لأسباب منها:طبيعة المداخلة أنها تقوم على التركيز لا التفصيل بحكم ضيق الوقت والالتزام بعدد محدد من الحجم المخصص لمثل هذه الملتقيات العلمية، ولأننا ندرك أن الكثير من الحضور الكريم سواء من باحثين أو طلبة على قدر محترم من المعلومات المتعلقة بالنقد الجزائري وبرواده وإسهاماتهم في الحركة النقدية العربية والجزائرية، وسبب آخر يتمثل في أننا نبحث عن تجربة نقدية جزائرية سعت أو تسعى للتمكين واحتلال مكان لها بين المدارس أو على الأقل التجارب النقدية العربية والغربية، إننا لا نتجنى على النقد الجزائري عندما نقرر تكل الأحكام والمقولات.

لقد أبرز الدكتور عبد الله ركيبي رحمة الله عليه مراحل تطور النقد في الجزائر مبينا أنه مر بمراحل ثلاث وإن كانت متداخلة إلا أننا نستطيع أن نميز بينها سواء(من ناحية السمات الخاصة بكل مرحلة نظرا لظروف الأدب ونظرة الأدباء، ونظرا لواقع الثقافة القومية التي تعرضت لمؤثرات وعوامل عاقت الأدب والنقد على أن يتطور في اتجاه سليم)1 ، فالمرحلة الأولى حددها ركيبي بأنها تمتد

من القرن الماضي-19-حتى قيام الحرب العالمية الثانية،والمرحلة الثانية تبدأ من بعد الحرب العالمية الثانية إلى الثورة التحريرية،أما المرحل الثالثة فتبد أمن الاستقلال إلى يومنا هذا.2 بتصرف.

وكل مرحلة تحدث عنها الركيبي بين ما سادها من قضايا نقدية شغلت النقاد والمثقفين في فترتها،ففي المرحلة الأولى كانت النظرة تقليدية يقول:(كانت النظرة إلى النقد الأدبي في الجزائر هي النظرة القديمة التي تهتم بالجزء دون الكل ،فالنقد كان لغويا جزئيا صرفا،اتضحت فيه العناية باللغة بمفرداتها وبتراكيبها)3 ،ويبقى جوهر البحث في التجربة النقدية الجزائرية بمختلف مراحلها حول مدى تمثل وتجسد الوعي النقدي في المنجز الأدبي الجزائري.

ولنا أن نضع التصور المبدئي لحركة النقد الجزائري_وهو تصور عام يقوم على قراءات شاملة تحتاج إلى التدقيق العميق_ فنجد تجارب نقدية قامت على نظم النقد الكلاسيكي المرتكز أساسا على المناهج السياقية التقليدية واللغوية المبرزة لمختلف المظاهر اللغوية والأسلوبية،والبلاغية والبيانية العاملة على إبراز جماليات النص الأدبي وفق خضوعه لقوانين وقواعد البلاغة العربية التقليدية،وهذا النوع يمكن أن نطلق عليه النقد الانطباعي وقد مثل هذا التيار مثلا محمد مصايف،عبد الله ركيبي،أبو القاسم سعد الله...الخ،وهي تجار بنقدية فذة في وقتها ولكنها عندما توضع على جهاز الفحص نرى أنها في الكثير من القضايا المعروضة من الناحية التنظيرية تقليد للنقد المشرقي ،وفي بعدها التطبيقي جنحت للنصوص الأدبية العربية القديمة أو المشرقية مع عناية محتشمة بالنص الجزائري ،ولذلك أسباب عدة نعرضها عن شاء الله في موضعها،كما نجد تجارب نقدية تخطت الانطباعية وحاولت دخول عالم النص وبخاصة بعد الاطلاع على البنيوية وما نتج عنها من مناهج عرفت بالنصية ،وتعلقت هذه التجارب في عمومها بأهداب الدراسات الأكاديمية وبخاصة الجامعية ممثلة في الرسائل المعدة لنيل شهادة الماجستير والدكتوراه ثم أعيد طبعها في صورة كتب لتعم الفائدة،ولكن ما يسجل عليها أنها عنت بصورة كبيرة بالجانب النظري وما جاء من تطبيقات تم انتقاؤه انتقاء،كما سادها نوعا من الخلط في المفاهيم والمصطلحات ويصل الأمر أحيانا الخلط في الآليات الإجرائية فنجد التداخل والانتقال غير المبرر من منهج لآخر،كما لاحظنا تركيز الممارسة النقدية المعاصرة على النصوص الأدبية للمبدعين المشهورين دون غيرهم مما جعل الأعمال النقدية تتسم بالتكرار والتشبع،بل هب الكثير من المتتبعين للحركة النقدية الجزائرية أنها دخلت مجالات المحاباة لا غير وفي ها المقام نستمع للأستاذ الدكتور عيسى شريط: (أما عن واقع النقد الأدبي في الجزائر، فأعتقد أنه قد تأسس على قاعدة المحاباة بشكل مغال وتبنى معادلة "أحبك، أباركك..لا أحبك، ألعنك"، فانكب على ممارسة وظيفته النقدية على أساسها غير مبال بجودة النص أو رداءته، ولعله أهمل بذلك أجود النصوص التي وجدها تستحق العرض والقراءة النقدية خدمة وترقية للفضاء الأدبي الجزائري)4 ،فالنقد الجزائري كغيره من التجارب النقدية العربية وحتى الغربية لم تتخلص من الانطباعية الذاتية،كما أننا لاحظنا أن النقاد الجزائريين توجهوا بالنقد دراسة وتحليلا لنصوص مشهورة أو أصحابها مشاهير وبالتالي اختصروا على أنفسهم مسافة ومشقة الجهد في تعرف القراء عليهم بفعل اتصالهم بالمشهور لا بجهدهم النقدي وبهذا الصنيع هم أعادوا بل ثبتوا مقولة الناقد مبدع فاشل أو

النقد طابع على المظروف لا غير، وهي مقولات تأزم العلاقة بين النقد والإبداع وترهن الأمر في جدلية مغرقة في السوفسطائية لا خير فيها.

على كل حال يمكننا أن نجمع ما تفرق من قول حول تجارب النقد الجزائري في الأسطر التالية :

بدأ النقد الجزائري الحديث بدايات تقليدية كغيره من النقد في البلاد العربية ومرجع ذلك الثقافة الكلاسيكية التي سادت الجزائر في فترة الاستعمار والاستقلال، وقد رأينا كيف كان يركز النقد على المظاهر اللغوية والأسلوبية والبيانية بصورة انطباعية عامة ،كما وجدنا التوجه نحو الاستفادة من المناهج النقدية التي سادت تلك الفترة وهي مناهج سياقية تشتغل على النص أكثر من اشتغالها على المبدع أو المتلقي.

ركز النقد الجزائري الحديث في فترة الاستعمار وبعيد الاستقلال على البعد النظري المطعم بالشواهد التطبيقية القليلة والقائمة على الشعر بدرجة كبيرة وذلك راجع إلى الثقافة المكونة لجيل الرواد من النقد الجزائري.

توجه النقد الجزائري الحديث بعد فترة الاستقلال وبخاصة ما بعد منتصف السبعينيات إلى موجة النقد الجديد الذي ظهر في الغرب منطلقا من البنيوية ثم ما بعدها وتحمل عبء هذا العمل جيل من الطلبة والباحثين الذين تابعوا دراساتهم بالجامعات الغربية وحتى العربية أين نقلوا تجاربهم ومعارفهم النقدية الحديثة إلى الوسط الأكاديمي الجزائري تأطيرا وتأليفا، غير أنه ما يسجل على هذه الأعمال أنها تبحث الأبعاد النظرية أكثر من التطبيق _الذي برز بصورة واضحة مع دراسات التسعينيات_ والاشتغال على نصوص أدبية غالبيتها ليست جزائرية.

ميزت فترة التسعينيات وما بعدها توجه النقد الجزائري إلى الممارسة التطبيقية والتركيز على التحليل أكثر من التنظير ،كما نلاحظ بقاء إشكالية تعدد المصطلحات واضطرابها، وكذلك تعدد المناهج وأحيانا تداخلها في الدراسة الواحدة ،غير أنه ما يحمد لنقد هذه المرحلة التوجه بقوة نحو الأدب الجزائري وبخاصة في الدراسات النقدية الأكاديمية سواء المتعلقة بالماجستير أو الدكتوراه، ولعل هذا التوجه هو خطوة فعلية في سبيل الاهتمام بالأدب الجزائري وبالتالي تطويره والدفع من خلاله بالبحث عن خصوصيات وقضايا تؤسس لما يعرف بالنقد الجزائري.

يمكن القول إذن إن النقد الجزائري في هذه المراحل تميز بغلبة هاجس التنظير بالبحث في القضايا النظرية والمعرفية على حساب القراءات والدراسات التطبيقية، وكأننا أمام اختبار إثبات الذات وإبراز القدرات المعرفية ،وهذا ما جعل العديد من المؤلفات تتسم بالاضطراب والتداخل في المناهج والمصطلحات، والقليل الذي جمع ما بين النظري والتطبيقي غير أن هذا الأخير جاء في صفحات معدودات والذي تجاوز ذلك احتل فصلا واحدا من العمل، وهذه الظاهرة تبرز بوضوح في المنجز النقدي الجامعي الأكاديمي فغالبا ما يعمد الباحث إلى بسط المفاهيم النظرية وما إلى ذلك من القضايا ثم يختم عمله بفصل أو فصلين تطبيقيين لإثبات مدى فهمه واستثماره لتلك المقولات النظرية، ولمنجد قراءة نقدية وفق منهج نقدي ما مباشرة ودون المرور على الجانب النظري، وكأن الأمر صعبا وضربا من المستحيل، أو قد يكون واجبا لابد منه، وقد يكون كذلك في المؤلفات العامة تلك الموجهة للعامة أما ونحن بصدد الحديث عن النقد فهو ممارسة واعية وعالمة تسقط عنها تلك التعلات ،فالمفروض أن من يتعامل مع النقد قراءة أو ممارسة يكون على مستوى معين من الثقافة بذلك الأمر.

النقد الجزائري وحلم المدرسة المستقلة: هل يمكن فعلا الحديث عن نقد جزائري ؟أو بالأحرى هل يمكننا أن ندعي بوجود مدرسة نقدية جزائرية ؟إن التسرع في الإجابة بنعم يجبرنا على البحث عن خصوصياتها وعن أعلامها ومناهجها ولما لا عن مصطلحاتها ناهيك عن المؤلفات المؤسسة لها فلسفيا وفكريا ومنهجيا وحتى أيديولوجيا...الخ والأمر سيان عند الإجابة بلا .

لعل المستمع أو القارئ لما سلف ذكره يبادر بالقول :كيف يمكن أن نؤسس لمدرسة نقدية جزائرية ؟وما هي مميزاتها ومناهجها ؟وهل أصبح لكل بلد نقده الخاص به ؟ثم ما مفهومنا للنقد الجزائري ؟هل هو ذلكم النقد الذي يبحث نصوصا جزائرية محضة ؟وبأي لغة ؟أم هو نقد له آلياته ومناهجه الخاصة ؟

هذه الأسئلة المتشعبة والمستعصي بعضها هي جوهر البعد الابستيمولوجي للنقد الجزائري، والإجابة عنها يحتاج إلى جهد عملي لا يتوقف عند حدود المسار التاريخي والمفاهيمي للنقد ومصطلحاته ومناهجه بل يتعداه للبحث في قضايا الأدب الجزائري ومكوناته المختلفة لاستخراج خصوصياته المحققة لما يمكن أن نسميه النقد الجزائري المستخرج من خصائص الأدب الجزائري، ولإظهار بعض ما أردنا قوله تقربنا من عالم الدكتور عبد الحميد بورايو ، والدكتور حسين خمري والدكتور واسيني الأعرج للكشف عن ما إذا يمكن أن نتحدث عن نقد جزائري، ولعل قائل يقول لماذا الثلاثة هؤلاء ؟لماذا ليست أسماء أخرى ؟ ألا توجد غير هذه الأسماء في الحركة النقدية الجزائرية ؟فنقول أسئلتكم فيها من وجهات النظر ما هو صحيح، ولكن الاختيار وقع لاعتبارات منها:

كل واحد من تلك الأسماء يتوفر على العمل الجامعي الأكاديمي-وهو عامل يشترك فيه معهم الكثير-لكن الثلاثة لم يتم التطرق لتجربتهم النقدية بالكم الذي تعرض له مثلا عبد الملك مرتاض، أو محمد مصايف، أو سعيد بوطجين أو رشيد بن مالك...الخ ، التمتع بعمق التجربة النقدية والاحتكاك المباشر بالعملية الإبداعية ممارسة أو قراءة أو معا، وكذلك محاولة الالتزام لكل واحد منهم توجه نقدي واضح ومحدد وفي تخصص من الدراسات الأدبية.

إن الحديث عن مدرسة نقدية جزائرية حلم يمكن تحقيقه مع الباحثين الجامعيين الأكاديميين لو توحدت جهودهم النقدية وفق رؤية واضحة ومحددة تهدف إلى خلق هذه المدرسة ولا يهم التوجهات الفكرية والتخصصية لأصحابها، فمثلا لو عملنا على تقريب المهتمين والمشتغلين على توجهات ومدارس ومناهج نقدية معينة وفق ما يعرف بالرابطات أو الجمعيات، لكان الجهد واضحا ومثمرا، ولجمع ما تشتت من جهود وأبحاث يحق لها تكون مدرسة نقدية بمعنى الكلمة.

الناقد عبد الحميد بورايو :مسؤولية نقل الدراسات الشعبية من الهامش إلى المركز: لا احد ينكر الدور الريادي للدكتور عبد الحميد بورايو في حقل الدراسات الشعبية العربية عموما والجزائرية خصوصا، فقد استطاع أن يوجه بوصلة الدراسات الشعبية الجزائرية من الدرس التقليدي والمحتشم والمهمش للأدب الشعبي إلى الدرس الأكاديمي الجاد المبرز لقيم تلك النصوص، وهذه أعماله دالة على ذلك:

القصص الشعبي في منطقة بسكرةمنطق السرد/

دراسة في القصة العربية الجزائرية الحديثة الحكايات الخرافية للمغرب العربي / دراسة تحليلية في معنى المعنى.
التحليل السيميائي للخطاب السردي.
البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشفوي الجزائري
البعد النفسي والاجتماعي للحكاية الشعبية الجزائرية.
من ترجماته:مدخل إلى السيميولوجيا (مجموعة من المؤلفين الرواية. مناهج وتقنيات تحليل الرواية بيير فاليت

من الملاحظ على تلك المؤلفات النقدية أنها تبحث في الأفق السيميولوجي من الجانبين النظري والتطبيقي ،وهي مؤلفات تجتهد في تقديم المفاهيم النظرية والمصطلحات بصورة علمية دقيقة وبلغة قريبة من لغة القارئ الجزائري بعيدا عن الضبابية والتداخل في المصطلحات وبعيدا كذلك عن الغامض والمهجور .

لقد بدأ الناقد عبد الحميد بورايو مساره النقدي أكاديميا معتمدا على النقد السوسيولوجي وتلك حتمية فرضتها تلك المرحلة من سبعينيات القرن الماضي نظرا لهيمنة الفكر اليساري على الحركة الأدبية إبداعا ونقدا وأيديولوجيا وسياسة،وحاول الدكتور عبد الحميد بورايو في هذه المرحلة التقرب من الراهن الجزائري وفق المقولات النظرية الماركسية التي وظفها المنهج السوسيولوجي كما برزت في مؤلفات رواده مثل جورج لوكاتش، وبيار زيمة،غير أن المرحلة الثانية من تجربته النقدية تخطت المنهج السياقي السوسيولوجي إلى المناهج النصية متمثلة أساسا في المنهج السيميائي ومن خلاله استثمر بورايو المقولات النظرية والخطوات الإجرائية للمنهج على النصوص الجزائرية متجها بالدراسة والتحليل للأدب الشعبي الجزائري ويعد بورايو رائدا في هذا المجال حيث سعى مع مجموعة من المهتمين من أمثال الدكتور عبد المجيد حنون والدكتور رشيد بن مالك والدكتور عبد القادر فيدوح وغيرهم إلى تأسيس ما يمكن اعتباره مدرسة جزائرية .

إن الكم الهائل من الدراسات التي قدمها عبد الحميد بورايو سواء المطبوعة أو تلك التي أطرها ممثلة في رسائل الماجستير والدكتوراه تؤكد التوجه النقدي الواضح والمحدد كما تبين الضبط المنهجي المعتمد من قبله،ليتأكد لنا أن بورايو يسير وفق مشروع نقدي جزائري يتكئ على المنهج السيميولوجي في آلياته الغربية ولكن وفق تحوير لمنطلقاته الفكرية والفلسفية بما يتوافق والنصوص الأدبية الجزائرية وفي مقدمتها النصوص الشعبية.

إذن تمثل تجربة الدكتور عبد الحميد بورايو نموذجا للنقد الجزائري الأكاديمي المعتمد على المناهج الغربية ولكن وفق خصوصيات النص الجزائري والعربي،ولذلك نجد الباحث مصطفى يعلى كلاما عن بورايو بصفته قامة من قامت النقد العربي وذلك في كتابه السرد ذاكرة : (في كتابه هذا بفتح النصوص السردية الشعبية العجيبة من خلال رصد وظائفها، على التاريخ والمجتمع والحياة، وذلك من أجل استكشاف دلالاتها العميقة والبعيدة)5 ،ولكن ما يلاحظ على كتاب بورايو الخاص بدراسة الحكايات الخرافية المغاربية أنه عدد في المناهج النقدية مما يمكن عده جملة من المقالات المجموعة في هيئة كتاب يقول مصطفى يعلي معلقا على الكتاب : (وواضح أن المؤلف يجمع بين أطراف منهجية متفرقة (مورفولوجية بروب . بنيوية ستراوس الأنتروبولوجية . سيميائيات جريماس . مقارنتية المدرسة الأمريكية، وغيرها). وإن كنا نرى بأن الاقتصار على منهج واحد محدد من مناهج هؤلاء

المنظرين، كان أصلح لهدف هذه الدراسة، خاصة وأنه كما يبدو من هذه الفقرة ومن التحليل النصي للمتن، أن الأمر لم يعد آليتي التحليل المعروفتين في البنيوية التكوينية لدى لوسيان غولدمان، نقصد (الفهم والتفسير)، أو ما سماهما المؤلف هنا (الأشكال السردية ومعالجة المضامين) أو (الدراسة الشكلية والدراسة الدلالية)، مع الإشارة إلى أننا أحسسنا في بعض مراحل التحليل أن المؤلف كاد ينتقل من حقل الأدب إلى حقل الأنتروبولوجية.)6 ،ومع ذلك فالكتاب يمثل دراسة جيدة في مجاله : (فهذا كتاب جاد جدير بالقراءة. فهو رائد في بابه، من حيث موضوعه وإشكاله، وتطبيقه المنهجي، وخلاصاته ونتائجه المتحققة، ينم عن حسن فهم واستيعاب لمادته، ودقة تمثل ووضوح للمطلوب منهجيا. فهو بذلك إضافة نوعية أصيلة إلى مكتبة الدراسات الأدبية الشعبية العربية اليتيمة.)7.

إن التجربة النقدية للدكتور عبد الحميد بورايو التي تجاوزت من حيث التأليف الأكاديمي عشرات الكتب ناهيك عن التأطير العلمي للعديد من الرسائل الجامعية الأكاديمية ما بين الماجستير والدكتوراه تثبت الخطوات المتأنية والرؤية الواضحة لصاحبها والتي آل على نفسه العمل وفق مشروع نقدي واع يستثمر المناهج النقدية الغربية لدراسة وفهم النصوص الأدبية العربية عموما والجزائرية خصوصا والشعبية على وجه الدقة والتخصص، وذلك إيمانا منه بالدور الايجابي لحركة النقد إذا واكبت النص ليس فقط من ناحية الشكل أو المضمون وإنما من ناحية النبش في المرتكزات المختلفة التي يقف وراءها النص، وكذلك عندما يستبق النقد النص من حيث التنظير وبسط القضايا التي توجه العملية الإبداعية متجاوزا — النقد — بذلك مسألة تبعية النقد للنص الإبداعي ،فالنقد على قول الدكتور إبراهيم رماني : (إن النقد الأدبي في حد ذاته؛ إنما يسعى إلى معرفة الصور الجمالية، للقطعة الأدبية، وتقدير الصفات الأساسية التي يجب توفرها ليكون النص أثراً فنياً خالدا)8

وغير بعيد عن تجربة الدكتور عبد الحميد النقدية نقترب من تجربة الدكتور حسين خمري، وهو كذلك يشترك مع بورايو في الانتماء لتيار النقد الأكاديمي الجامعي، والمتتبع لما نشره من مؤلفات يرى ذلك الأمر بوضوح فمثلا هذه المؤلفات:

سرديات النقد؛ في تحليل آليات الخطاب النقدي المعاصر منشورات الاختلاف دار الأمان الجزائر، 2011

الترجمة في الجزائر ، دار أقطار الفكر

عن الترجمة، الدار العربية للعلوم ناشرون

الظاهرة الشعرية العربية الحضور والغياب، اتحاد الكتاب العرب سورية ، 2001

فضاء المتخيل ، وزارة الثقافة السورية 2001

نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ،الدار العربية للعلوم-ناشرون، منشورات الاختلاف 2007

تمثل تيارا وتوجها نقديا واضحا لخمري يقوم على النقد ما بعد البنيوي مستثمر المعرفة الجيدة باللغة الأجنبية - الفرنسية —متخذا من جسر الترجمة ممرا آمنا لفهم المنطلقات الفكرية والفلسفية لتلك المناهج النقدية الحديثة، وهذا المكسب اللغوي هو ما سهل للناقد كما سهل لبورايو من قبله من التغلغل داخل تلك المنظومات الفلسفية والفكرية والأيديولوجية الغربية دون اللجوء لوسيط آخر، ونحن نعتقد أن هذه الميزة ضرورية لكل من يقتحم ميدان النقد أنه لا يمكن الحفر بعيدا وعميقا في النصوص ما لم يكن الناقد متحكما في أكثر من لغة على الأقل وإلا كان نتاجه النقدي أعرج حتى

ولو اتكئ على المترجمات من الكتب بخلاف الإبداع يمكن لصاحبه الاكتفاء بلغته الأم أو المكتسبة ويحقق لنصوصه النجاح والعالمية.

حسين خمري وهاجس النقد الغربي: اشتغل حسن خمري على النقد الحديث منطلقا من البنيوية وصولا إلى النص بصفته ظاهرة نقدية متداخلة أحدثت اضطرابا بين الباحثين وبخاصة أثناء الإجراءات العملية – التطبيقات- على النصوص الإبداعية، هذا المر جعل من خمري أن يتجه إلى عالم النص أساسا بحثا وترجمة ليخرج علينا بكتابه الموسوم ب نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الصادر عن الدار العربية للعلوم ناشرون –منشورات الاختلاف- الجزائر 2007 ،لقد جاء الكتاب في أربعة فصول؛ الفصل الأول بعنوان سيميائية النص وفيه ركز خمري على النص من حيث المفهوم حيث لامس المفاهيم المختلفة والمتعددة للنص عند العرب والغرب نعند القدامى والمحدثين كاشفا عن الفروق الدلالية والاستعمالية للنص عند كل فريق ،والوظائف التي يقوم بها النص منطلقا من سؤال محدد هو ما هي وظيفة النص؟ويبحر خمري في الإجابة عن السؤال معرجا عن كل ما كتبه المهتمون بالنص والذين بحثوا وظيفة النص وفق سياقها النقدي الحداثي (وترى السيميائيات الحديثة أن وظيفة النص داخل نظامه النصي، وعن طريق هذه العلاقات يتعين مستوى الوظيفة المهيمنة)9 وكيفيات وشروط إنتاج النص ،وهي قضايا توسع خمري بما يجعل الدارس يخرج بما يثلج صدره في الجانب النظري ويلخص له العديد من المفاهيم المبثوثة في ثنايا المؤلفات المشتغلة على النص ،كما تضمن الفصل الأول قضية فضاء النص مركزين على عنصرين اثنين هما عتبة النص ونهاية النص، أما العنصر الثالث من الفصل الأول فعالج المحاولات التأسيسية التنظيرية وهنا عرض خمري بالبحث والتبيين لمفهوم النص ثم دلالته كما ناقش مسألة السياق وبنية النص ،كل ذلك من خلال العودة إلى المصادر الم لكل مسألة وبخاصة عند العلماء العرب وهذه ميزة تحسب لخمري فعندما بحث مفهوم النص ركز على العلماء العرب فقط وهذا على طول مباحث الفصل ويبرر ذلك مدافعا عن موقفه بقوله : (من عيوب الفكر العربي مرضه بالمماثلة والمطابقة مع النظم المعرفية والرمزية التي ينتجها الآخر(الغرب) وتبنيه للأنماط السلوكية والفكرية التي تفرزها تصوراته وأنظمته العقلية ورؤيته للعالم، والسبب الأساسي في ذلك يعود إلى غياب التراث في حياتنا_على الأقل في الجزائر_وعدم وجود سيولة في تداوله على الرغم من حضوره في وعينا ولا شعورنا)10، أما الفصل الثاني فجاء للبحث في أصول النص من حيث نحوه، والنص الظاهر والنص المولد، وعلاقة النص الظاهر/النص المولد، كما بحث موضوع قضية النص ،وكما يلاحظ على ها الفصل أنه مزج بين المفاهيم العربية التقليدية والغربية مركزا بدرجة كبيرة وواضحة على المفاهيم الغربية وهذه الخطوة مخالفة تماما لما شاهدناه في الفصل الأول، وهذا ما يؤكد لنا مسألة في غاية الأهمية بالنسبة للنقد العربي عموما والجزائري على وجه الخصوص تتمثل في العودة للتراث النقدي والمنجز اللغوي والبلاغي العربي القديم عند بحث مسائل المفهوم والدلالة والمصطلح وربما أحيانا الوظائف والأنواع...الخ لكن عند الحديث عن المسألة من حيث الاختصاص يتم اللجوء إلى المصادر الغربية والاعتماد عليها في مقاربة القضية النقدية كحال النص عند خمري، وهذا المزج هو الذي جعل كتبنا

النقدية لا تتميز بالتفرد ولا بالخصوصية ولا بالاستقلالية .

في الفصل الثالث بحث خمري اللغة والنص وفق العناصر التالية:النص واللغة،النص ولغة اللغة،النص والكتابة،وعمل على مدار الفصل التفريق بين كل عنصر من تلك العناصر،مذكرا بالمنجزات النقدية في هذه القضايا عند علماء الدرس اللساني الحديث،مبديا مفاهيمهم للغة أو للنص أو للكتابة وللعلاقات بينهم وكيفية تشكلها،ونلمح في الفصل تكرار بعض المفاهيم التي وردت في الفصل الأول وبعض القضايا التي عولجت في الفصلين الأول والثاني ما يجعل القارئ يحس بنوع من التكرار،غير أن المفيد في الفصل الثالث هو الالتزام التام من الناقد لما خطه حيث لم يخرج عن دائرة البحث في النص واللغة والكتابة بوصفهم ثلاثية متلازمة ومتداخلة ولكن كل واحدة منهم لها مكوناتها وعالمها الخاص والمستقل عن الآخر.وفي الفصل الرابع والأخير قدم لنا خمري ما سماه بالممارسات النصانية،منطلقا من المحاولات التأسيسية مركزا على الباقلاني،وهنا يتبين لنا كيف حاول جاهدا البحث عن النص عند القدامى وخاصة عند البلاغيين العرب وفي مقدمتهم الباقلاني،ذلك أن (المشروع البلاغي العربي قدم جهازا مفاهيميا متكاملا،حاولا من خلاله القبض على دقائق التعبير وأسرار الخطاب الأدبي،وقد وفر مجموعة من الأدوات المنهجية الدقيقة والأطر المعرفية الواضحة)11،تتبع تجربة الباقلاني النقدية في كتابه إعجاز القرآن لقصيدتين لشاعرين مختلفين زمنيا هما امرؤ القيس والبحتري كدراسة ليست بلاغية فقط بل ترتقي لعلم النص الحديث بكل ثقة وتأكيد،كما عرج على تجربة عبد المالك مرتاض في دراسته لقصيدة ألف ياء دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي مبينا ما لها وما عليها من مآخذ إجرائية وحتى من ناحية المفاهيم وللتوسع أكثر في المسألة ينظر الصفحات 376، 375، 374، 373 وما بعدها من كتاب نظرية النص لحسين خمري،ولم يكتف بالتمثيل من الشعر بل قدم لنا تجربة نقدية من الرواية العربية بعنوان عنف المتخيل في أعمال إميل حبيبي للناقد سعيد علوش والمر كذلك لم يخرج عن دائرة التقديم ثم رصد الخطاء التي وقع فيها الناقد علوش عند تطبيقه للمنهج المعتمد في الدراسة (ومن الناحية المنهجية نلاحظ أن سعيد علوش لم يكن يلتزما بالخطوات الإجرائية للمنهج،فهو مثلا لم يحدد صيغة تمفصلات التناص؛أي كيفية الانتقال من النص الروائي إلى النصوص الخارجية،وما هي وظيفة هذا الانتقال)12،وللتنويع في رصد الدراسات النقدية عرج خمري على الدب الشعبي ممثلا له بدراسة لعبد الحميد بورايو حول القصص الشعبي في منطقة بسكرة وكعادته قام بتقديم العمل مبينا انتمائه لحقل الدراسات الخاصة به كما وضح أسبقية هذا الجهد الأكاديمي في النقد العربي والجزائري،مبرزا بعد ذلك الهنات التي وقع فيها الناقد بورايو من ذلك عدم الإشارة للمنهج المعتمد في الدراسة،وكذلك عدم تعريفه للمتتالية السردية باعتبارها لا مجموعة من العلاقات المنطقية(بل نزلها منزلة اللغة عندما تكلم عن علاقات الحضور وعلاقات الغياب،وهي الميدان الأثير لعلماء اللسانيات)13،كما أعاب عليه تعدد المناهج واختلافها فمن المنهج الوظيفي إلى المنهج الشكلي إلى المنهج الاجتماعي الغولدماني ،إلى الانطباعية(وهو ما ينافي المنهج الذي اتبعه والذي يعتمد التحليل والحجاج بدل الإحساس وإثارة الإعجاب ،وهي نهاية تبدو غير متناسقة مع

مقدماتها المنهجية ،والأسس المنهجية والفلسفية التي قام عليها البحث)14

ختم الناقد خمري كتابه النقدي نظرية النص بالتطرق للنص التاريخي باعتباره نمطا من أنماط السرد متخذا من دراسة سيزا قاسم :الخطاب التاريخي من التقييد إلى الإرسال؛ قراءة في الطبري والمسعودي وابن خلدون،مجالا للتحليل والتعليق ولما القراءة النقدية كما فعل مع سابقيها من الدراسات، ومن الملاحظات التي سجلها مطاطية العنوان،والاعتماد على أدوات ومفاهيم لسانيات الخطاب،كما سجل بعض التناقضات المعتمدة في منهج الدراسة كدراسة الخبر والحديث،كما أنه يأخذ عليها الأخذ الكثير من كتاب علي أومليل :الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون،وما يحسب لها اعتمادها على لسانيات التواصل مما جعل عملها يتجاوز الطرح التاريخي إلى الطرح الأدبي.

لقد ظل الناقد حسين خمري طيلة صفحات هذا الكتاب رهين المقولات والدراسات الغربية وعلى رأسها ما أنتجته جوليا كرستيفا وفان ديك، ،وهذا لا يعني التقليد الأعمى والتكرار والاجترار بل يبرز لنا المقدرات العلمية والثقافية والفكرية للناقد وحسن تمثله لموضوعه.

عود على بدء: إن حركة النقد في الجزائر لم تتوقف في مرحلة ما عند تيار أو مدرسة أو منهج نقدي بعينه بل انتقلت في كل الاتجاهات،وهذا التنقل وتلك الحركية تؤكد حقيقة المواكبة الفعلية للمثقف الجزائري لما يدور حوله سواء في العالم العربي أو الغربي من تجاذبات في عالمي الأدب والنقد،كما أننا نسجل للنقد الجزائري الملاحظات التالية:

1- في مرحلته التقليدية من الاحتلال إلى الاستقلال لم يخرج عن القضايا والموضوعات التي اهتم بها النقاد العرب القدامى بل ركز على التجربة النقدية المهتمة باللغة والبلاغة والمضامين في مفاهيمها التقليدية وذلك بحكم المرحلة ا- الاحتلال وحداثة عهد والاستقلال-للتأكيد على الانتماء للوطن العربي بكل مكوناته ومنها المكون والنقدي .

2- النقد الجزائري في المرحلة التقليدية برز بصورة واضحة في المقالات النقدية التي ظهرت في صفحات الجرائد والمجلات الجزائرية والعربية،واحتشام انتشار الكتب المطبوعة لأسباب مالية وفنية،كنقص دور النشر والمطابع،زد على ذلك نقص الوعي من قبل المثقفين في تلك المرحلة بالدور الفعال للنقد من منطلقات الأدب الجزائري والتركيز على الأدب العربي قديمه وحديثه.غير أن الصحافة الثقافية كانت نشطة وبفضلها برزت الأسماء التي تعلو تاج النقد الجزائري.

3- غلبة التوجه التربوي والتأريخي للنصوص النقدية على الأبعاد الجمالية والفنية،ويمكن أن نعد نقد هذه المرحلة بالنقد الشمولي الهاوي اللهم إلا بعض الأعمال التي كان أصحابها من أهل الاختصاص أو من الأكاديميين.

4- انتقال النقد في مرحلة الستينات والسبعينيات إلى النقد المنهجي ؛أي القائم على تتبع ظاهرة نقدية سواء بالتنظير أو التطبيق وفق المقولات النقدية الغربية،وهذه الممارسات ظهرت مع النقاد الجامعيين الأكاديميين، فأغلب ما ظهر منها هو في حقيقته رسائل جامعية معدة لنيل شهادة الماجستير أو الدكتوراه ثم قام أصحابها بطباعتها ونشرها وفي الغالب تم ذلك على حساب مؤسسات الدولة الجزائرية

5- تغلب موجة النقد الماركسي والبنيوي على نقد هذه المرحلة إلى غاية تسعينيات القرن الماضي ،حيث سجلنا تراجع العمل النقدي القائم على

الأيديولوجيا إلى النقد القائم على العلمية وبخاصة ما ارتبط منه باللسانيات بكل أنواعها.

6- ظهور جيل من النقاد الجزائريين الشباب الساعين للتحكم في فلسفات المدارس النقدية ومناهجها وبخاصة الغربية منها ومحاولة استثمارها في النص والنقد الجزائري.

7- مع وجود العديد من دور النشر والطباعة إلا أن الكثير من الأعمال النقدي الجادة والأكاديمية لم تر النور بعد ومازالت حبيسة رفوف المكتبات الجامعية.

8- انحسار الاهتمام الإعلامي بحركة النقد، فالصحف والجرائد اليومية لا تساهم في دفع حركة النقد الجزائري إلا بالقليل القليل من صفحاتها المسماة الصفحة الثقافة، فأين هي الملاحق الثقافية ؟وأين هي المجلات المتخصصة ؟

9- غياب رؤية واضحة من قبل نقادنا للتكتل في مؤسسة رسمية تجمع شملهم وتوحد كلمتهم ، هذا الغياب له أسبابه ومبرراته لكنها تسقط جميعا عندما نقف أمام هول الفراغ المؤسساتي الممثل للنقد والنقاد الجزائريين-حال اتحاد الكتاب الجزائريين مثلا لا حصرا-.

10- انغلاق حركة النقد على النخب والأكاديميين والجامعيين وعدم القدرة على الانفتاح على المتلقين بمختلف ثقافاتهم ومؤسساتهم.

ويبقى في الأخير القول بأن هذه الملاحظات بسلبياتها وايجابياتها مجرد رأي قد نتقاسمه وقد نختلف حوله لكننا حاولنا من خلاله إثارة ما يمكن إثارته من هموم ثقافية ونقدية لا يتسع لها إلا مثل هذه الأماكن والملتقيات.

الهوامش والاحالات:

1__ عبد الله ركيبي :تطور النثر الجزائري الحديث 1830__1974، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، ط1 ، 1983، ص:241

2__لمزيد من التوسع ينظر المرجع نفسه ، من الصفحة 241إلى الصفحة 256

3__م ن ، ص :241

4- عيسى شريط:مقال هل دخل النقد في بطالة، عربسات مجلة أدبية ثقافية

www.arabesque-edition.com/almajala/ar/story1490622.html

5- مصطفى يعلى: السرد ذاكرة،منشورات المملكة المغربية 2009، ص:111

6- مصطفى يعلى: الحكاية الخرافية للمغرب العربي لعبد الحميد بورايو، منتدى آفاق العروبة مقال منشور بتاريخ 03__11__2011

7__ م ن

8__ إبراهيم رماني: أسئلة الكتابة النقدية، المؤسسة الجزائرية للطباعة، منشورات المجاهد الأسبوعي، الجزائر، ص:.

9-حسين خمري :نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان ، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2007، 1، ص:67

10__ م ن ، ص:131

11- م ن ، ص:325

12-م ن ، ص:432، 431

13- م ن ، ص:442، 441

14- م ن، ص:4